

الشكر □ وأثره في سعادة الأُمم



«عرّف العلماء الشكر □ بأزّه: ظهور أثر نعمة □ على لسان عبده ثناء واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

فالشكر من يكون لسانه مشغلاً بالثناء على ربه معترفاً له بنعمه، ويكون قلبه مملوءاً محبة □ على هذه النعم، وشهوداً بأنها منه فضل وإحسان، وتكون جوارحه مشغلة بطاعة □ استسلاماً له وانقياداً.

لهذا كان الشكر من مظاهر العبادة التي التي دعا إليها القرآن، قال □ تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة/ 172).

"وكلمة الشكر من الكلم الجوامع التي تنتظم كل خير وتشمل كل ما يصلح به قلب الإنسان ولسانه وجوارحه. فالذي لا يحب □ ولا يشهد قلبه بأن ما فيه من النعم إنما هو من □ فضلاً وإحساناً ليس بشاكر. والذي لا يثني على ربه ولا يحمده بلسانه ويخوض في الباطل ويشغل لسانه بلغو القول وهو الحديث ليس بشاكر، والذي يعطيه □ من العلم شيئاً ولا يعمل به ولا يعلّمه الناس ليس بشاكر، والذي يعطيه من المال ما يستعين به على طاعته بصرفه في وجوه الخير والبر ويخل به أو يصرفه في معاصي □ ليس بشاكر".

لهذا دعا □ إلى التخلق بالشكر في كثير من الآيات مثل قوله:

(بَلِّغِ اللّٰهَ فَعَاوِدُ وَكَؤُنُ مِنْ الشّٰكِرِينَ) (الزّمُر/ 66).

ومدح □ نبيه إبراهيم لقيامه بواجب الشكر: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمَيْهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ

كما تفضل □ بعدم عذاب الشاكرين: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) (النساء/ 147).

ووعده □ الشاكرين بأن يزيد لهم النعم في الدنيا ويحفظها لهم: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/ 7).

الشكر على نعم □: وشكر الخالق واجب على الإنسان فإن لم يفعل كان بذلك مقترفاً أشنع أنواع الجحود والنكران. ألا ترى أننا ننكر على الشخص الذي لا يسدي الشكر لمن أحسن إليه من البشر فما بالك بمن لا يسدي الشكر لخالقه مصدر كل النعم، ولا يمكن أن نكون مقربين إلى □ من غير شكره، وهذا ما أمر به □ في آيات متعددة قال تعالى: (وَاللَّهُ أَخْبَرَ جَكَكُمْ مِنْ بَطُولِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل/ 78).

(وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا حَبًّاءَ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (يس/ 33-35).

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْيَمِينَ لِيَتَجَرَّوْا فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الجاثية/ 12).

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِيَتَسَكَّنُوا فِيهِ وَلِيَبْصُرُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (القصص/ 71-73).

ولكن الناس أمام هذه النعم وغيرها قليلاً ما يشكرون، قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) (يونس/ 60).

ومنفعة الشكر لا تعود على □ فإنّه لا ينتفع بشكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين، وانّما منفعة الشكر تعود على الشاكر، فهو يطهر النفوس، ويقربها من □، ويوجه إرادتها إلى الوجهة الصالحة في إنفاق النعم في وجوهها المشروعة، ولهذا يقول سبحانه:

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (لقمان/ 12).

أمّا كفران النعم فيعرضها للزوال لأنها تجعل المرء غير مبال بها، ويبدها بدون منفعة، ويتلف ما أنعم □ به عليه من نعم الصحة والعافية، ويسير على غير المنهج الذي رسمه له الخالق فيؤدي به إلى غضب □ والبعد عن رحمته.

والقرآن يخبر بأنّ خراب الأمم كان سببه كفران النعم وعدم الشكر □، قال سبحانه: (وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيحًا كَانَتْ أَمْنَةً لِّلْمُتَّقِينَ يَأْتِيهَا رِزْقٌ فِيهَا رِغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَّاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل/ 112).

وذكر القرآن قصة قوم سبأ وما حلّ بهم لكفرهم بنعم ربهم:

(لَقَدْ كَانُوا لَكُمْ إِسْبَابًا فِي مَسْكَانِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُنَّا نَبْرِؤُهُنَّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَنَا بِلَادِهِ طَيِّبَاتٍ وَرَبِّ غَفُورٍ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَاءُ الْيَاسِينَ كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ) (سبأ/ 15-17).

فالشكر من دعائم سعادة الأُمم، والتنكب عنه لا يجلب غير الدمار والخراب. حبذا لو فهمت الشعوب الشكر وعملت به لتحصل على السعادة التي تنشدها وهي عنه غافلة. ►

المصدر: كتاب رُوح الدِّين الإسلامي